مجلة كلية الآثار بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

باب الكعبة المشرفة قبل الإسلام

إعداد

د. إبراهيم محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم المساعد

كلية الآداب – جامعة عين شمس

تمهيد

بعد نزوحهما من أرض فلسطين إلى بلاد الحجاز، قام إبراهيم الخليل وولده إسماعيل – عليهما السلام – برفع قواعد الكعبة المشرفة[١]، بأمر من الله تعالى، وهو أمر ثابت بما لا يدع مجالاً للشك، في القرآن الكريم، والسنة النبوية المقطوع بصحتها، في الصحيحين، وغيرهما من كتب السنة، وليس هناك من المؤرخين من عارض في ذلك على الإطلاق.

والكعبة المشرفة هي أول بيت وضع للناس، كما جاء في قوله تعالى: "إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين"[٢]، ليكون قبلة للناس، ويعبد الله تعالى عنده، وكونه أول بيت وضع للناس بمكة، المراد منه الكعبة المعظمة، فهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم مطلقاً[٣]، وإنما اختلفت الروايات في أول من بنى الكعبة، وكذلك في عدد مرات بناءها.

وجزم الإمام ابن كثير وغيره من العلماء، أنه لم يجيء في خبر صحيح عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام[٤]، وإن كان قد حصل للمفسرين في تفسير هذه الآية قولان، كما ذكر الفخر الرازي: "الأول: أنه أول بيت في البناء والوضع، وأصحابه يستندون إلى بعض الأخبار الموقوفة من قول بعض الصحابة والتابعين[٥]، ويرون كذلك أن الكعبة المشرفة قد بنيت عدة مرات قبل بناء إبراهيم عليه السلام[٦]، والذاهبون إلى هذا المذهب لهم أقوال، والقول الثاني: أن المراد من هذه الأولية كونه مباركاً وهدى للخلق"[٧].

وقد ذكر الحافظ البغوي، عن مجاهد، أنه قال عن تسمية الكعبة المشرفة: "سميت كعبة لتربيعها، والعرب تسمي كل بيت مربع كعبة"، وقال مقاتل: "سميت

---

[١] عن الكعبة المشرفة وأسماءها قبل الإسلام، انظر: عبد القدوس الأنصاري: التاريخ المفصل للكعبة المشرفة قبل الإسلام، نادي مكة الثقافي الأدبي، مكة المكرمة ١٤١٨-١٤١٩هـ، ص ٨-٢١.

[٢] سورة آل عمران : الآية ٩٦.

[٣] حسين بن عبد الله با سلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، عمارتها وكسوتها وسدنتها، تحقيق: الدكتور يوسف بن علي بن رابغ الثقفي، مكة المكرمة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ٤٢.

[٤] أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ١٦٣؛ محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الأول، في بلاد العرب، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ١٨٥.

٥ حسين با سلامة: الكعبة المعظمة، ص ١٣.

٦ هذه العمارات هي: بناء الملائكة، وبناء آدم عليه السلام، وبناء ولد آدم. انظر: أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي (ت نحو ٢٥٠هـ): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، الطبعة التاسعة، دار الثقافة للطباعة، مكة المكرمة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ١/ ٣٤، ٤٣، ٥٠.

[٧] محمد فخر الدين بن ضياء الدين عمر الفخر الرازي: تفسير الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ٨/ ١٤٣.

كعبة لانفرادها من البناء، وقيل سميت كعبة لارتفاعها من الأرض"[٨]، وقال ابن الأثير: "كل شيء علا وارتفع فهو كعب، ومنه سميت الكعبة للبيت الحرام، وقيل سميت به لتكعيبها، أي تربيعها"[٩].

وتنفيذاً لأمر الله تعالى، فقد قام إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام برفع القواعد من البيت، وكذلك القيام على خدمته، ليكون موئلاً للطائفين والعاكفين والركع السجود، مصداقاً لقول الحق تعالى: "وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود"[١٠].

وكذلك فيرجع تاريخ عمارة مكة المكرمة إلى عهد إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، والذي قدره الأزرقي بسنة ١٨٩٢ قبل الميلاد[١١].

ونظراً لأهمية مكة المكرمة الفائقة، ولكونها أهم مواضع الحضر في الحجاز على الإطلاق[١٢]، فقد حظيت وشؤونها بعناية واهتمام المؤرخين، القدامى منهم والمحدثين، وهكذا فقد توافر لدينا ألوان من المصادر التي قدمت لنا الكثير من المعلومات عن تاريخ هذه البقعة الشريفة، وإن شابها في أحايين متفرقة بعض من الاختلاف، اليسير أو البين، إلا أنها مجتمعة قدمت لنا صورة جلية لكيفية الأوضاع السائدة في مكة، وفصلت لنا الكثير مما يخص الكعبة المشرفة وعمارتها، ومنها باب الكعبة المشرفة، ويرتبط به أقفاله ومفتاحيه.

ويبدو أن إبراهيم الخليل – عليه السلام – لما نال شرف بناء الكعبة المشرفة[١٣] فإنه قد بناها بالرضم، حجارة بعضها فوق بعض، من غير طين ولا نورة[١٤]، ولم يجعل لها سقفاً[١٥]، وأنه كذلك قد جعل لها بابين اثنين، ملاصقين للأرض، أولهما في الجهة الشرقية مما يلي الحجر الأسود، والآخر من الجهة

---

[٨] أبو محمد الحسين الفراء البغوي الشافعي: تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، بهامش تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، المكتبة التجارية الكبرى، توزيع دار الفكر، بيروت د.ت، ١/ ٤٥٧.

[٩] مجد الدين أبو السعادات المبارك ابن محمد الجزري ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر: تحقيق: محمود محمد الطناحي، دار إحياء التراث، بيروت د.ت، ٤/ ١٧٩.

[١٠] سورة البقرة : الآية ١٢٥.

[١١] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٥.

[١٢] محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٨، ص ٣٩١.

[١٣] أبو القاسم زين العابدين: الكعبة والحج في العصور المختلفة، مع أهم مناسك الحج على المذاهب الأربعة، مكة المكرمة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ٥٤.

[١٤] المأموني إبراهيم: تهنئة أهل الإسلام بتجديد بيت الله الحرام (مخطوط)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض؛ محمد النهروالي: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص ١٤٤.

[١٥] محمد علان بن عبد الملك بن علان البكري الصديقي المكي: مثير شوق الأنام إلى حج بيت الله الحرام، دار القاهرة وزهراء الشرق، القاهرة ٢٠٠٦م، ص ٢٧.

الغربية مما يلي الحجر اليماني، على سمت الباب الشرقي[١٦]، ويدعم ذلك ما رواه البخاري في صحيحه قال: "حدثنا يزيد بن رومان، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: "يا عائشة، لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين، شرقياً وغربياً، فبلغت به أساس إبراهيم"[١٧].

وحفر إبراهيم عليه السلام في داخل البيت بئراً، تكون خزانة له، وأشار إليه الأزرقي بقوله : "وحفر إبراهيم عليه السلام جباً في بطن البيت، على يمين من دخله، يكون خزانة للبيت، يلقى فيها ما يهدى للكعبة"[١٨]، ولم يجعل الخليل عليه السلام على البيت سقفاً، ولا وضع على بابيه أبواباً تفتح وتغلق[١٩].

وروى الأزرقي عن ابن إسحاق أن الخليل عليه السلام "جعل الباب (أي موضع فتحة باب الكعبة) لاصقاً بالأرض، غير مرتفع عنها ولا مبوب"[٢٠].

وهكذا، فقد كان بناؤه عليه السلام مثالاً للبساطة التامة[٢١]، فلم تكن الحاجة ماسة آنذاك لكي يقوم بصناعة باب للكعبة، وهي بدون سقف يحمي ما بداخلها، فما دام بناؤه لها كان على هذه الصفة فلا ضرورة لوضع باب (حقيقي) عليها[٢٢]، ولذا فقد كان الباب وقتها لا يعدو كونه مجرد فتحة فقط في البناء، للدخول والخروج منها، وهذه الفتحة تمثل المكان الذي يدخل منه إلى جوف الكعبة، لأن الحاجة لم تكن ماسة آنذاك لكي يقوم بصناعة باب للكعبة[٢٣]، أي أن هيئة باب الكعبة المشرفة في عهد إبراهيم الخليل عليه السلام لم يكن يعدو كونها فتحة فقط بدون مصراع، وبالتأكيد فلم يكن هناك قفل ولا مفتاح.

وحظي البيت العتيق، منذ أن أمر الله تعالى نبيه إبراهيم الخليل عليه السلام برفع قواعده، بكل التعظيم والرعاية والاهتمام، بعمارته وكسوته وتطييبه.

---

[١٦] أحمد السيد دراج: الكعبة المشرفة سرة الأرض ووسط الدنيا، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤٢٠ه/١٩٩٩م، ص ٥٦-٥٧.

[١٧] رواه البخاري في صحيحه في كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها (١٥٠٧)؛ ومسلم في صحيحه في كتاب الحج، باب جدر الكعبة وبابها (٢٧٢٧)؛ صالح بن حميد: تاريخ أمة ١/ ٤٧، هامش رقم ٣؛ وانظر: ابن حجر: فتح الباري، جـ٧، ص ٢٣٢، (١٥٨٦).

[١٨] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٦٢.

[١٩] حسين با سلامة: الكعبة المعظمة، ص ٨٢؛ علي الخربوطلي: تاريخ الكعبة، ص ٢٤.

[٢٠] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٦٤-٦٥.

[٢١] عبد الملك بن عبد الله دهيش، الحرم المكي الشريف والأعلام المحيطة به، دراسة تاريخية وميدانية، مكة المكرمة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص ١٢٠.

[٢٢] محمد طاهر الكردي المكي: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الجزء الخامس، تحقيق: الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر، بيروت ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص ٥١.

[٢٣] ناصر بن علي الحارثي: باب الكعبة المشرفة في عهد الملك عبد العزيز، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة الثامنة والعشرون، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٥٦.

ولما كان لباب الكعبة المشرفة من مكانة خاصة ومنزلة كبيرة، فإنه قد خصصت له منذ زمن بعيد وظيفة مهمة من وظائف خدمة الكعبة المشرفة، وهي وظيفة السدانة أو الحجابة[٢٤]، التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بوجود البيت العتيق، ويرجع تاريخها إلى بناء إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام، حيث كانت بيد إسماعيل عليه السلام، فهو حارسها ومسؤول عنها.

وتدخل مهمة حامل مفتاح الكعبة المشرفة ضمن المهام الرئيسية لسدانة الكعبة، ويقصد بها خدمتها والقيام بجميع أمورها من فتحها وإغلاقها وتنظيفها وغسلها وكسوتها، وإصلاح هذه الكسوة إذا تمزقت، واستقبال زوارها، وأيضاً كل ما يتعلق بذلك، وهي الحجابة[٢٥]، ويعرفون بالحجبة، لأنهم يحجبون الكعبة عن العامة[٢٦].

وظلت الكعبة المشرفة بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حرماً آمناً، يقدسه العرب، على أنه البيت الحرام الذي بناه أبوهم إبراهيم وولده إسماعيل[٢٧]، بأمر من الله تعالى، فالكعبة المشرفة تهوي إليها أفئدة الناس في كل زمان ومكان، وامتد تقديس العرب للكعبة إلى تقديس مكة، وأيضاً المناطق المجاورة لها، حتى أصبحت الأراضي الممتدة حولها إلى عدة فراسخ حراماً، لا يجوز الاعتداء فيها على إنسان أو حيوان، وكذلك امتد تقديس الكعبة إلى بعض الأمم الأخرى، كالهنود والفرس[٢٨]، وازدادت مكانة مكة المكرمة والكعبة المشرفة قدسية ورفعة بعد ظهور نور الإسلام، حيث أصبحت الرسالة عالمية.

وبعد وفاة إسماعيل عليه السلام، فقد صارت سدانة (حجابة) الكعبة المعظمة لولده نابت بن إسماعيل[٢٩] وأبناءه من بعده.

ومع أن بناء الكعبة المشرفة الحالي ليس هو البناء الأول لها، فعلى حسب روايات التاريخ فإنها هدمت وبنيت على الأقل عشر مرات في الجاهلية في رأي النهروالي[٣٠]، وإن كان الفاسي قد ذكر أنه اختلف في عدد مرات بناءها، ويتحصل من مجموع ما قيل في ذلك أنها بنيت عشر مرات[٣١]، وذكر الطبري أنها بنيت

---

[٢٤] عبد المنعم ماجد: أقفال ومفاتيح الكعبة، ص ١٠٧.

[٢٥] طلحة حسن الشيبي: تحقيق المرام في تاريخ البيت الحرام، الطبعة الأولى، مكة المكرمة ١٤١٥هـ، ص ٩٩؛ محمد الشرقاوي ومحمد الطحلاوي: الكعبة المشرفة، ص ٧٣.

[٢٦] حسين با سلامة: الكعبة المعظمة، ص ٣٦٣، هامش رقم ١.

[٢٧] محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ١٩٧.

[٢٨] علي حسني الخربوطلي: تاريخ الكعبة، دار الجيل، بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٢٦.

[٢٩] حسين با سلامة: الكعبة المعظمة، ص ٣٦٣.

[٣٠] محمد بن أحمد النهروالي: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٤٢٥هـ، ص ٣٣ وما بعدها.

[٣١] أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، حققه ووضع فهارسه: عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ١/ ١٩٦.

طوال تاريخها إحدى عشرة مرة[٣٢]، وقال السهيلي خمس مرات[٣٣]، ربما بسبب السيول التي كانت تحدث في مكة من وقت لآخر[٣٤]، وإن كانت في كل مرة تبنى على نسق بنائها الأول.

وبما أنها بيت، فقد كان للكعبة المشرفة ما للبيت من باب، وحتى قفل ومفتاح، ومن أبرز مظاهر عمارتها الاهتمام ببابها، وأيضاً بقفلها ومفتاحها، ومفتاح الكعبة المشرفة له نسخة واحدة فقط، تقتصر على شخص واحد هو السادن الأكبر للبيت[٣٥]، وكان باب الكعبة المشرفة، مثل بقية أجزائها الأخرى، له قدسية، فوصف بـــ"الباب الكريم"، أو "الكريم" فقط[٣٦]، مثلما وصفت الكعبة بالشريفة.

وتعددت روايات المؤرخين والباحثين في عدد الأبواب التي عملت من أجل الكعبة المشرفة طوال تاريخها، في الجاهلية والإسلام، وكذلك فقد اختلفت فيها، كما اختلفت أيضاً الروايات الإخبارية في أول من جعل الأبواب للكعبة، ومن خلال الروايات التاريخية والمصادر الموثوقة، فقد أمكننا حصر ثلاثة أبواب عملت من أجل أن تركب على الكعبة المشرفة قبل الإسلام.

أول باب للكعبة المشرفة:

اختلفت الروايات الإخبارية في أول من جعل للكعبة المعظمة باباً في بنائها، ومن أشهرها ما رواه الفاسي عن جده: "قال: حدثنا سعيد بن سالم القداح، عن عثمان بن ساج، عن وهب بن منبه قال: كان البيت الذي بوأه الله تعالى لآدم عليه السلام يومئذ ياقوتة من يواقيت الجنة حمراء تلتهب، لها بابان، أحدهما شرقي، والآخر غربي، ..."[٣٧].

ومن أبرز الروايات التاريخية التي وصلتنا عن أول باب عمل من أجل الكعبة المشرفة ما ذكره الفاسي عن الزبير بن بكار أن أول من بوب الكعبة هو "أنوش" ابن شيث بن آدم عليه السلام، على أنها كانت مبنية بالحجر وقتذاك[٣٨]، وكذا

---

[٣٢] علي بن عبد القادر الطبري: الأرج المسكي في التاريخ المكي، تحقيق: محمد بن صالح بن عبد الله الطاسان، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى جامعة أدنبرا ببريطانيا ١٩٧٩م، ومخطوط مكتبة الحرم المكي (٣٤٢٦)، ص ١٤٢-١٤٣.

[٣٣] أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار النصر للطباعة، القاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ١/ ٢٢١.

[٣٤] حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جدي قال: وسال وادي مكة في الاسلام بأسيال عظام مشهورة عند أهل مكة. الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٢٥٩.

[٣٥] جريدة الجزيرة: العدد ٣٣٨٦ الجمعة ١٥ صفر ١٤٠٢هـ/ ١٢ ديسمبر ١٩٨١م، ص ٦.

[٣٦] أبو الحسن محمد بن أحمد ابن جبير: رحلة ابن جبير (رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك)، الطبعة الثانية، دار مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦م، ص ٥٧.

[٣٧] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٤٠.

[٣٨] أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المكي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، الجزء الأول، ص ٢٢١.

ذكره السهيلي بقوله عن أنوش: " ... وهو أول من غرس النخلة، وبوب الكعبة، وبذر الحبة فيما ذكروا"[٣٩]، وذكر الأمر نفسه عند الطريقي[٤٠]، وهو رأي شائع عند الكثيرين، ولكن يصعب إثباته بدليل قاطع، وكذا التأكد من كون هذا الباب حقيقياً، له مصراع واحد، أو أنه بمصراعين، أم أن الأمر برمته لا يتعدى كونه مجرد فتحة موجودة في الجدار، لدخول الناس وخروجهم منها، والسبب في ذلك أنه من الأمور البعيدة جداً، والتي يتعذر إثباتها، ما لم تأت عن نبي معصوم، أو كتاب منزل[٤١].

وكما ذكرنا من قبل، فقد جزم الإمام ابن كثير، وكذا غيره من العلماء، أنه لم يجيء في خبر صحيح عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام[٤٢].

وروى الأزرقي بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في خبر بناء إبراهيم للكعبة: "ثم هدم، فبنته العمالقة[٤٣]، ثم انهدم، فبنته قبيلة من جرهم، ثم انهدم فبنته قريش"[٤٤]، في حين روى الفاكهي بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "أول من بنى البيت إبراهيم، ثم هدم، فبنته جرهم، ثم هدم البيت، فبنته العماليق، ثم هدم، فبنته قريش"[٤٥].

وعلى هذا، تكون جرهم قد بنت الكعبة قبل العمالقة، وإن كان الأزرقي يروي العكس[٤٦]، حيث لخص الفاسي مختلف الروايات الإخبارية في شأن أول من بوب الكعبة، فأشار إلى أقوال السهيلي والأزرقي، وعلق على مخالفة الفاكهي لما ذكره الأزرقي في أن جرهماً هم أول من بوب للكعبة، وقال في معرض تعليقه على أقوال الفاكهي: "ووجه مخالفة هذا لما ذكره الأزرقي أنه يقتضي أن جرهماً جعلوا للكعبة باباً، وهو المصراعان المشار إليهما في هذا الخبر، والزمن الذي صنعوا فيه ذلك هو زمن ولايتهم للكعبة، وولايتهم لها قبل ولاية خزاعة، وولاية خزاعة لها قبل ولاية قريش، والباب الذي عمله تبع هو في زمن ولاية قريش، على ما أشار

---

[٣٩] عبد الرحمن السهيلي: الروض الأنف ١/ ١٤، ٣٧، ٤٠.

[٤٠] عبد الله بن محمد بن أحمد الطريقي: تاريخ الكعبة المشرفة، الطبعة الأولى، الرياض ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧مـ، ص ١٢.

[٤١] محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ١٨٥.

[٤٢] ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ١٦٣؛ محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ١/ ١٨٥.

[٤٣] العمالقة أو العماليق: نسبة إلى جدهم عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام.

[٤٤] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٦٢.

[٤٥] أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي: أخبار مكة في قديم الزمان، دراسة وتحقيق: الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الطبعة الثانية، بيروت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ٥/ ١٣٨.

[٤٦] محمد الكردي: التاريخ القويم ٥/ ٥١.

إليه الفاكهي وغيره في خبر تبع الذي صنع باب الكعبة الذي ذكره الأزرقي"[٤٧]، وهذا مما يحمد للفاسي التزام الدقة في مراجعة النصوص[٤٨].

وربما أن باب الكعبة المشرفة قد ظهر بهيئته الفعلية كباب حقيقي، وكان له مصراعان، كما هو عليه اليوم، للمرة الأولى في تاريخه، على أيام جرهم[٤٩]، حيث ذكر الفاسي أنه: "لما انهدم بناء إبراهيم عليه السلام فإن جرهم قد بنت الكعبة من جديد، وكذا فقد جعلوا لها باباً بمصراعين وقفلاً"[٥٠]، وورد ما يتماشى مع هذه الرواية عند الفاكهي في قوله: "حدثنا أحمد بن صالح عن الواقدي قال: "كان البيت قد دخله السيل من أعلى مكة، فانهدم، فأعادته جرهم على بناء إبراهيم، وجعلوا له مصراعين وقفلاً ..."[٥١].

وإن كان الكردي يرى غير ذلك في موضوع الباب، حيث قال: "أن بناء جرهم وبناء العمالقة لابد وأن يكون على غرار بناء إبراهيم عليه السلام، أي بنوها بالرضم، بدون سقف لها، ولا باب، لأن حالة تلك العصور بدائية لى الطبيعة الأولى"[٥٢].

وهكذا، وبناء على ما تقدم، فإنه يبدو لنا – على الأرجح – أن أول باب عُمل بالفعل من أجل أن يركب على الكعبة المشرفة، لكي يغلق على ما بداخلها ويحجبه عن الناس، كان ذلك الباب الذي صنعته جرهم في أواخر عهدها، وهو زمن تولوا فيه أمر الكعبة، والذي كانت هيئته وقتذاك – وفقاً للروايات التاريخية – باباً ذا مصراعين، وكذلك فقد كان لهذا الباب قفل[٥٣] يغلق به، وأنه طالما هناك قفل فبالتالي كان للقفل مفتاح، وإن لم يعثر لأي منهما اليوم على أي أثر يذكر، وكذلك الحال بالنسبة للباب نفسه، والذي يفترض أنه قد اهترئ بمرور السنين والأيام.

وعلى أية حال، فإنه لما ضعف شأن أبناء إسماعيل عليه السلام على مر الزمن، تغلب عليهم العمالقة، فتولوا أمر البيت[٥٤]، وظلت السلطة في أيديهم إلى أن

---

[٤٧] الفاسي: شفاء الغرام ١/ ٢٠١.

[٤٨] عباس طاشكندي: "باب الكعبة المعظمة"، موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة، الطبعة الأولى، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، فرع مؤسسة مكة المكرمة والمدينة المنورة، لندن ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ٤/ ٣٨٩.

[٤٩] تعد قبيلة جرهم اليمنية أولى القبائل التي سكنت مكة المكرمة بعد أن هاجرت إليها، ويبدو أن أفعالهم كانت سبباً لحرمانهم من البيت العتيق والحرم. انظر: الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٨٥، ٨٨–٨٩.

[٥٠] يحي الوزنة: دراسة عن كتاب تاريخ الكعبة المعظمة، القاهرة ٢٠٠٦، ص ١٤٦.

[٥١] الفاسي: شفاء الغرام ١/ ١٤٣؛ الفاكهي: أخبار مكة ص ٢٣٥، فقرة ١٦٤ ملحق.

[٥٢] محمد الكردي: التاريخ القويم ٥/ ٥١.

[٥٣] محمد طاهر الكردي: التاريخ القويم ٥/ ٥١.

[٥٤] أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، المكتبة التجارية بمصر، القاهرة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م، ص ٤٩، ٥٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ١٨٧.

وفد بنو جرهم على مكة من اليمن، وكان ذلك في نحو منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وكان عليهم إذ ذاك "مضاض بن عمرو بن الحارث"[٥٥]، فزاحموا العمالقة وغلبوهم، فاغتصبوا منهم خدمة البيت، بل إن السلطان على مكة والحجاز جميعاً كان لهم، ولكنهم عاثوا في الأرض فساداً، فنال منهم وباء وقع فيهم، كان سبباً في إضعاف شأنهم، فاسترد بنو إسماعيل سدانة البيت، بعد أن تغلبوا عليهم وطردوهم من مكة.

وما كادت السلطة بعد ذلك تستقر في بني إسماعيل، حتى تغلب بنو خزاعة[٥٦]، وتولوا السدانة والقيام على البيت[٥٧]، ثم السقاية (إرواء الحجاج)، وظلوا على ذلك زمناً طويلاً.

الباب الثاني للكعبة المشرفة :

يبدو – من خلال الروايات التاريخية – أن الباب الثاني الذي عمل من أجل الكعبة المشرفة هو نفسه الباب الذي عمله تبع (تبان أسعد أبو كرب الحميري)[٥٨]، والذي لم يتضح لنا إن كان وقتها باباً ذا مصراعين، كسابقه الذي عملته جرهم، أم

---

[٥٥] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٨٤–٨٥.

[٥٦] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٩٤–٩٥، واشتهر من خزاعة كعب بن لؤي، الذي ذاعت بلاغته وفصاحته بين العرب، وعظم شأنه، حتى أنهم كانوا يؤرخون بعام موته إلى عام الفيل، وهو زمن يبلغ نحو ٤٠٠ سنة.

[٥٧] ذكر با سلامة أن سدانة الكعبة المعظمة ظلت لنابت بن إسماعيل إلى أن اغتصبها من ولده أخواله جرهم، ومكثت السدانة في جرهم عدة قرون إلى أن اغتصبتها منهم خزاعة، ومكثت في خزاعة عدة قرون إلى أن آل أمر مكة والكعبة المعظمة إلى قصي بن كلاب. انظر: حسين با سلامة: الكعبة المعظمة، ص ٣٦٣.

[٥٨] اختلف الباحثون في فترة حكم تبان أسعد أبو كرب، ملك (تبع) دولة حمير في اليمن، فيراها نلسن في الفترة (٤٠٠–٤١٥م، أو ٤٢٠م). cf., Nielsen D., Handbuch der Altararabischen Alterumskunde, Hamburg 1927, s.104; ويراها هومل في الفترة (٣٨٥–٤٢٠م). انظر: فريتز هومل وآخرون: التاريخ العربي القديم، ترجمة: فؤاد حسنين، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٠٨؛ ويراها فيلبي في الفترة (٣٧٨–٤١٥م). cf. Philby, J.B., Note on the Last Kings of Seba, muséon 63, 1950, s.269; وهناك من يراه حكم حتى سنة ٣٤٠م. انظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثاني، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٨، ص ٥٧١؛ ويحددها كيتشن في الفترة (٤١٠–٤٣٥م).

cf., Kitchen, K.A., The World of Ancient Arabia Series: Documentation for Ancient Arabia, Part I, Chronological Framework & Historical Sources, Liverpool University Press 1994, p.245.

راجع: أحمد محمود صابون ورشاد محمود بغدادي: السدانة (الحجابة) للكعبة المعظمة قبل الإسلام، دراسة تاريخية حضارية، كرسي الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود لدراسات تاريخ مكة المكرمة، مكة المكرمة ١٤٣٦هـ، ص ١٩، هامش رقم ١.

أنه كان له مصراع واحد فقط، وإن كان الكردي يرى أنه الباب الأول للكعبة المشرفة[٥٩].

وقد ذكر ابن إسحاق عند حديثه عن تبع الحميري أنه "سار حتى دخل مكة، فطاف بالبيت فكساه الحصيف، وكان أول من كساه، ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك؛ فكساه الوصائل، وصائل اليمن، وأقام بمكة ستة أيام [أشهر]، فيما ذكر لي، ينحر بها للناس، ويطعم من كان بها من أهلها ويسقيهم العسل. قال: فكان تبع، فيما ذكر لي، أول من كساه، وأوصى به ولاته من جرهم، وأمرهم بتطهيره، ولا يقربوه ميتة ولا دماً ولا ميلاثاً، وهو المحائض. وجعل له باباً ومفتاحاً"[٦٠].

وجاءت الرواية نفسها عند الأزرقي في حديث جده، عن سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج، عن محمد بن إسحاق قال: "بلغني عن غير واحد من أهل العلم أن أول من كسى [كسا] الكعبة سوة كاملة تبع وهو أسعد، أرى في النوم أنه يكسوها فكساها الأنطاع ... وجعل لها باباً يغلق"[٦١].

وعلى أية حال، فيبدو أنه قد عمل باب الكعبة المشرفة وهو في زمن ولاية قريش، على ما أشار إليه الفاكهي وغيره في خبر "تبع"، الذي صنع باب الكعبة، الذي ذكره الأزرقي[٦٢]، وذكر أن أسعد الحميري، وهو نفسه تبع الثالث، أحد ملوك اليمن قبل البعثة بزمن بعيد، هو أول من كسا الكعبة كسوة كاملة، ونحر عندها، وجعل لها باباً يغلق[٦٣] بغلق فارسي[٦٤]، حيث لم يكن يغلق من قبل، وذلك طبقاً لرواية الأزرقي عن ابن جريج[٦٥]، وأن تبع قد قال في ذلك شعراً منه هذا البيت:

وأقمنا به من الشهر عشراً وجعلنا لبابه إقليداً[٦٦]

وإن كان هناك من الباحثين من يعارض ذلك، ويرى أن تبان أسعد الحميري (تبع) لم يقم بصنع باب للكعبة المشرفة من الأصل، وإنما كل ما فعله في هذا الشأن أنه قام فقط بجعل لبابها، الموجود أصلاً، غلقاً (قفلاً)[٦٧]، وهو ما لانوافقه فيه، ثقة في روايتي الفاكهي والأزرقي.

---

[٥٩] محمد الكردي: التاريخ القويم ٥/ ٥١.

[٦٠] محمد بن إسحاق: سيرة ابن إسحاق، تحقيق: محمد حميد الله، دار الخاني للنشر والتوزيع، الرياض، د.ت، ص ٣٠-٣١.

[٦١] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٢٤٩-٢٥٠.

[٦٢] الفاسي: شفاء الغرام ١/ ١٤٣.

[٦٣] عبد الرحمن السهيلي: الروض الأنف، ص ١٧٢؛ بن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ص ١٣٧.

[٦٤] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٦٤.

[٦٥] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٢٥٠، وانظر أيضاً ص ١٣٤، حيث ذكر أنه "جعل له باباً يغلق بضبة فارسية".

[٦٦] حسين با سلامة: الكعبة المعظمة، ص ٢٣٥ – ٢٣٦.

[٦٧] ناصر الحارثي: باب الكعبة المشرفة، ص ٥٦.

وعلى أية حال، فإنه يبدو أن الهدف من عمل باب للكعبة المشرفة، وجعله يغلق بقفل له مفتاح، على الأغلب لن يعدو كونه الحفاظ على خصوصيتها الدينية وقدسيتها، بحيث لا تكون مستباحة الدخول للعامة، أو بدون إذن، وبحيث تفتح بابها في أوقات معينة ولأغراض محددة، وقد أوكلت هذه المهمة لسدنة البيت، وهي مهمة سنتحدث عنها لاحقاً.

وفي حديث السيدة عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن باب الكعبة فقالت: "فما شأن بابها مرتفعاً، فقال: فعل ذلك قومك، ليدخلوا من شاؤا، ويمنعوا من شاؤا"[٦٨]، وقد ذكر الأزرقي ما يتماشى مع ذلك، عندما أفادنا بأن: "قريشاً لما بنت الكعبة رفعت بابها عن الأرض[٦٩]، ليدخلوا من شاؤوا، ويمنعوا من شاؤوا"[٧٠].

وربما أن السبب أيضاً من وراء وجود القفل هو الحفاظ على ما يوجد بداخل الكعبة المشرفة من الأشياء ذات الأهمية والخصوصية العالية، مثل البيعات والعهود، وأيضاً هدايا الكعبة المتنوعة التي كانت ترسل إليها[٧١]، حيث أن لدينا من الروايات ما يشير إلى ذلك صراحة، حيث أشار الأزرقي إلى أن هدايا الكعبة المشرفة كانت تهدى إليها منذ عهد إبراهيم الخليل عليه السلام بقوله: "وحفر إبراهيم عليه السلام جباً في بطن البيت، على يمين من دخله، يكون خزانة للبيت، يلقى فيها ما يهدى للكعبة"[٧٢]، وروى الفاسي في شفاء الغرام، عن المسعودي أنه قال في مروج الذهب: "وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر".[٧٣]

ويبدو أن قريشاً كانت قد حفرت البئر في جوف الكعبة، حيث روي عن ابن عباس أنه قال: "وكان البيت يكرم على وجه الدهر ويهدى له، فحفرت قريش في جوفه حفرة، يجعلون هداياهم في تلك البئر، يرتضون رجلاً فيجعلونه على تلك البئر، فبينما الرجل الذي ارتضوه عليها سولت له نفسه خيانة، فلما انقطعت الظلال وخفت المجالس، بسط ثوبه، ثم أخذ منها ثلاث مرار يحمله في ثوبه، فقيض الله عليه منها حجراً في الثالثة، فحبسه محنياً، رأسه أسفله، فراح الناس فأخرجوه، وأعادوا فيها ما كان أخذه منها"[٧٤].

---

[٦٨] صحيح مسلم، كتاب الحج، باب جدار الكعبة وبابها: ٢/ ٩٧٣ (١٣٣٣).

[٦٩] حسين با سلامة: الكعبة المعظمة، ص ٩٦.

[٧٠] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٧٠.

[٧١] بوابة الحرمين الشريفين (الموقع الإلكتروني للرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوي): "الكعبة المشرفة بناء وكسوة على مر التاريخ"، ص ٢.

[٧٢] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٦٢.

[٧٣] حسين با سلامة: الكعبة المعظمة، ص ٢٥٢.

[٧٤] أبو إسحاق الحربي: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث، الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٤٨٦.

وهكذا وحتى لا تتعرض هدايا الكعبة المشرفة للنهب والسلب، كما حدث في عهد جرهم[٧٥]، على سبيل المثال، فقد كان من الضروري وقتذاك أن يضعوا قفلاً جيد الصنع على باب الكعبة المشرفة.

وعلمياً وعملياً، فإن القفل يعتبر تابعاً لنفس الباب، فمتى كان الباب كان القفل ومفتاحه، وعملية القفل تشمل الضبة الخشبية أو المعدنية، وتشمل كذلك القفل الحديد، بجميع أشكاله وأنواعه[٧٦].

ولم يتأكد لنا بشكل صريح حقيقة إن كان تجديد قفل باب الكعبة المشرفة يقترن بالضرورة بتجديد بابها أم لا، حيث اختلفت الروايات والآراء في ذلك الأمر، وإن كان من المعلوم أن الخلفاء والسلاطين والحكام كانوا يرسلون الأقفال والمفاتيح لاستخدامها في غلق وفتح باب الكعبة المشرفة، وذلك في أثناء القيام بأعمال ترميم الكعبة المشرفة والمسجد الحرام، أو في بعض المناسبات الأخرى.

وعلى أية حال، فسواء أكانت الأقفال مرتبطة بتجديد باب الكعبة المشرفة أو أنها غير مرتبطة به، فإن الأمر المؤكد هنا، طبقاً لشواهد الأحوال، وأيضاً للدراسة القائمة على تقصي الحقائق وتحليلها، هو أن أقفال الكعبة المشرفة ومفاتيحها لم تكن فقط مجرد وسيلة للفتح والغلق، وإنما كانت تحمل في نفس الوقت فكرة الرعاية والعناية والحرص، وأيضاً التقدير العالي، لكل ما يتصل ببيت الله الحرام؛ الذي يحمل المكانة الدينية المقدسة عند سائر المسلمين في كل بقاع الأرض، فالمسجد الحرام بالتأكيد هو أفضل بقاع الأرض على الإطلاق[٧٧]، وأن الكعبة المشرفة كانت أول بيت وضع للناس لعبادة الله الواحد الأحد، وأنها كذلك مكان مقدس أيما قدسية عند جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، إذ هي قبلتهم في الصلاة ومقصدهم في الحج، وأن الله تعالى قد جعل البيت الحرام في مكة المكرمة مثابة للناس وأمناً، وعليه فإن باب الكعبة المشرفة منذ أن عُرف قد حظي، ومعه أقفاله ومفاتيحه، بعناية خاصة جداً على مر العصور.

الباب الثالث للكعبة المشرفة :

كان قصي بن كلاب[٧٨] رجلاً حازماً طموحاً، وكان يعمل في حوزة حُليل بن بن حبشية ابن سلول الخزاعي، زعيم خزاعة ووالد زوجته[٧٩]، وكان يتولى أمر

---

[٧٥] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٢٠٩؛ ناصر الحارثي: باب الكعبة المشرفة في عهد الملك عبد العزيز، ص ٥٦.

[٧٦] محمد الكردي: التاريخ القويم ٥/ ٥٣.

[٧٧] عندما خرج مهاجراً للمدينة المنورة قال صلى الله عليه وسلم مخاطباً مكة: "والله إنك خير أرض الله إلى الله، وأحب أرض الله إلي، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت". رواه أحمد.

[٧٨] قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، سيد قريش في عصره، وأول من كان له ملك من بني كنانة، وهو الجد الرابع للنبي صلى الله عليه وسلم، هدم الكعبة وجدد بناءها، وحاربته القبائل، فجمع قومه من الشعاب والأودية وأسكنهم مكة، كانت قريش تتيمن برأيه، وكان له الشرف والرياسة ولبنيه من بعده، وحاز قصي شرف مكة، وأنشأ دار الندوة، وفيها كانت قريش تقضي أمورها، ولم يكن يدخلها من قريش

الكعبة ومكة، وبدأ قصي يعمل على أن يكون الرجل الأول في مكة، ورأى أنه أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة وبني بكر.[٨٠]

وعندما حضرت حُليل الوفاة أعطى قصي ولاية البيت الحرام، وسلم إليه مفتاح الكعبة المشرفة[٨١]، وإن كان الفاكهي يروي أن حليل قد أوصى بولاية البيت لأبي غبشان، فتخلى أبو غبشان عن ذلك لحُبّي بنت حُليل وابنها عبد الدار بن قصي، وأن قصي أعطاه أثواباً وأبعرة[٨٢].

في حين يروي الزبير بن بكار أن حُليل جعل إلى أبي غبشان فتح البيت وإغلاقه، وأن قصي قد اشترى ولاية البيت من أبي غبشان بزق خمر وقعود، وقيل بكبش وزق خمر، فقال الناس: أخسر صفقة من أبي غبشان، فصارت مثلاً[٨٣]، وهذه الرواية وضعت في القرن الأول الهجري، ربما لتشويه صورة قصي بن كلاب؛ بسبب التنافس بين بني أمية وبني هاشم على الحكم.

ولما مات حُليل أبت خزاعة أن تدع قصي، وأخذت منه مفتاح الكعبة المشرفة، فاستنصر برجال من قريش وكنانة فأجابوه، وكذا تبعهم قضاعة، واقتتلوا في منى، ثم تداعوا إلى الصلح، وولي قصي حجابة البيت وأمر مكة[٨٤].

وعلى أية حال، فإنه بعد أن ولي قصي بن كلاب أمر البيت الحرام[٨٥] فإنه قد أخذ بذلك مفاتيح الكعبة، واجتمعت له السقاية، وحجابة البيت، والرفادة، ولواء الحرب، حيث نبه شأنه، ومن ثم عظم سلطانه[٨٦].

وقد جمع قصي النفقة لإعادة بناء البيت الحرام، ثم أنه قام بهدم الكعبة المشرفة، وبناها بناية حسنة، لم تبن مثلها من قبل، فعن أبي سعيد الخدري قال: قال

من غير ولد قصي إلا ابن أربعين سنة للمشورة، وكان يدخلها ولد قصي كلهم أجمعون وحلفاءهم. (بتصرف)، انظر: الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٠٩.

[٧٩] اسمها حبي بنت حليل، وقد أنجبت لقصي بن كلاب ولده عبد الدار، وهو أكبر أبنائه، وعبد مناف وعبد العزى وعبد بن قصي. انظر: الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٠٨.

[٨٠] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، الطبعة الثانية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ١٥.

[٨١] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٧٨.

[٨٢] الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٩٥.

[٨٣] الفاسي: شفاء الغرام ٢/ ٩٥-٩٦.

[٨٤] أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي الشافعي: بناء الكعبة البيت الحرام زادها الله تشريفاً وتكريماً (رسالة في تاريخ الكعبة المشرفة من بداية بنائها حتى بناية الحجاج)، دراسة وتحقيق: الدكتور عبد اللطيف بن عبد الله بن دهيش، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ١٥٠.

[٨٥] كانت القبائل العربية في العصر الجاهلي تسكن شعاب مكة وما حولها، ولا يسكنون بقرب الكعبة المشرفة، تعظيماً لحرمتها، فلما آل أمر البيت الحرام إلى قصي بن كلاب أمر قومه أن يبنوا منازلهم حول الكعبة المشرفة، ليهابهم القوم من حولهم، وخاصة إذا أتوا إليهم فلا يقاتلونهم. انظر: محمد طاهر الكردي: التاريخ القويم ٢/ ٧٨.

[٨٦] يوسف أحمد: المحمل والحج، ص ١٩٨-١٩٩.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قصي أول من جدَّر الكعبة[٨٧] بعد كلاب بن مُرَّة"[٨٨].

وتذكر الروايات التاريخية أن قصي قد سقف الكعبة المشرفة بخشب الدوم وجريد النخيل، ويقال أنه جعل طولها في السماء خمسة وعشرين ذراعاً[٨٩].

ويرى الفاسي بأن قصي إن أراد بهذا المقدار ارتفاعها كان مخالفاً للمشهور من كون الخليل جعلها تسعة أذرع، وزادتها قريش مثلها، وإن أراد العرض من الجهة الشرقية والغربية فالمعروف أنه لا ينقص عن ثلاثين، وإن أراد عرضها من الجهة الشامية واليمانية فإنه لا يبلغ خمسة وعشرين[٩٠].

ولم توضح الروايات التاريخية وصفاً صريحاً لباب الكعبة المشرفة في بناء قصي بن كلاب، وإن كان وجود نزاع في البداية على مفتاح البيت، وانتقاله إلى قصي، يشير ضمناً إلى وجود باب حقيقي، سواء كان له مصراع واحد أو اثنان، وأن الباب كان عليه قفل له مفتاح، وأن هناك من يملك حق التحكم في فتحه وغلقه، وفقاً لما هو متبع بين القوم آنذاك.

وهكذا فقد جرت العادة أن وظيفة أو مهمة السدانة تنتقل بالوراثة إلى الأكابر من الأبناء، منذ بدأت من زمن إسماعيل عليه السلام وأبنائه من بعده، حتى زمن قريش في مكة بزعامة قصي بن كلاب، ومن بعده ابنه عبد الدار، وبعد وفاته انتقلت السدانة إلى أبناء عبد الدار وحفدته[٩١]، ومن المعروف أن مهمة حامل مفتاح الكعبة المشرفة تدخل ضمن المهام الرئيسية لسدانة الكعبة.

ومن ناحية أخرى، فبعد بناء قصي بن كلاب للكعبة المشرفة فإنه ينسب إلى عبد المطلب بن هاشم[٩٢] عمل باب لها، أو على الأقل قيامه بتصفيح الباب الموجود عليها بالذهب، حيث ذكرت المصادر العربية أن عبد المطلب عندما حفر بئر زمزم

---

[٨٧] أي شيد جدرانها، وفي الأوائل للطبراني وابن عاصم: جدد الكعبة.

[٨٨] سليمان بن أحمد الطبراني: الأوائل، تحقيق: محمد شكور بن محمود، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٣هـ، ص ٦٣.

[٨٩] المأموني إبراهيم: تهنئة أهل الإسلام، ص ٤٣؛ محمد طاهر الكردي: التاريخ القويم ٣/ ١٣٩.

[٩٠] أحمد المقريزي الشافعي: بناء الكعبة، ص ١٢٣، هامش رقم ٣.

[٩١] أحمد صابون ورشاد بغدادي: السدانة، ص ١١، ٦٨.

[٩٢] اسمه شيبة الحمد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، ونشأ عبد المطلب في بيئة سيادة وشرف، وعظم قدره لما احتفر بئر زمزم، وكانت من قبل مطوية، وكفل النبي صلى الله عليه وسلم بعد موت أبيه، ونال شرف تربيته بعد موت أمه آمنة بنت وهب الزهرية، ومات عبد المطلب وعمر رسول الله ثمان سنين .

وجد غزالين من ذهب، كانت جرهم قد دفنتها في البئر[٩٣]، فضلاً عن سيوف ودروع، فضرب الأسياف باباً للكعبة[٩٤].

فحسب روايات تاريخية عديدة، فإن من دفن ذلك كله هو مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض بن عمرو، بعد أن كثر بغي جرهم في مكة، فلما رأى ذلك مضاض منهم عمد إلى غزالين من ذهب كانا في الكعبة، وأسياف، فدفنها في موضع زمزم ... وكانت إذ ذاك ذهب ماؤها ودرس[٩٥].

وروى الفاسي في شفاء الغرام، عن المسعودي أنه قال في مروج الذهب: "وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر، وقد كان ساسان بن بابك أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً، فدفن في زمزم، وقد ذهب قوم من مصنفي الكتب في التواريخ وغيرها من السير ان ذلك كان لجرهم حين كانت بمكة، وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك إليها، ويحتمل أن يكون لغيرها، والله أعلم"[٩٦].

وذهبت بعض الروايات إلى أن بريق الذهب هذا جعل بعضاً من اللصوص يطمعون فيه، وأنهم قد تسللوا في جنح الظلام، وجردوها مما كانت تتحلى به من نفائس ذهبية[٩٧].

ويبدو أن الكعبة المشرفة كانت في زمن عبد المطلب بن هاشم مبنية برضم يابس، ليس بمدر، وكان ارتفاعها يبلغ تسعة أذرع، وكان بابها وقتذاك بالأرض، ولم يكن لها سقف[٩٨].

وعلى أية حال، فسواء أكان الباب المذكور من عمل عبد المطلب، أو من عمل قصي بن كلاب وقت بناءه للكعبة المشرفة، أو أن الباب قد خلع ونقل كما هو من العمارة القديمة للكعبة، فإن عبد المطلب بن هاشم، طبقاً للروايات التاريخية العديدة، قد جعل في الكعبة الغزالين صفائح من ذهب، وجعل باب الكعبة ذهباً[٩٩]، فكان بذلك أول ذهب حليت به الكعبة[١٠٠].

---

[٩٣] الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٤٧؛ الفاسي: شفاء الغرام ١/ ١١٣.

[٩٤] أبو الحسن المسعودي: مروج الذهب، ص ١٠٣.

[٩٥] محمد صالح بن أحمد زين العابدين الشيبي العبدري الحجبي: إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام، تحقيق: إسماعيل أحمد إسماعيل حافظ، نادي مكة الثقافي الأدبي، مكة المكرمة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ص ٢٣٨-٢٣٩.

[٩٦] حسين با سلامة: الكعبة المعظمة، ص ٢٥٢.

[٩٧] المسعودي: مروج الذهب، ص ١٠٣؛ الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٤١، ٤٣؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ص ٢٥١؛ علي الخربوطلي: تاريخ الكعبة، ص ٥٧-٥٨، أبو إسحاق إبراهيم الحربي: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، الرياض ١٩٦٩، ص ٤٨٥.

[٩٨] عباس طاشكندي: باب الكعبة المعظمة، ص ٣٩٠.

[٩٩] يوسف أحمد: المحمل والحج، ص ٥٦.

[١٠٠] محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ٢٢٢.

وذكر الأزرقي في أحداث حملة أبرهة على مكة، أن عبد المطلب أخذ بحلقة باب الكعبة، ومعه نفر من قريش، يدعون الله أن ينصرهم على أبرهة وجنده، وكان عبد المطلب، وهو آخذ بحلقة باب الكعبة يردد:

يا رب، إن المرء يمنع رحله، فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدوا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك
ولئن فعلت فإنه أمر يتم به فعالك

وانطلق عبد المطلب ورفاقه إلى شغف الجبال، وبيده حلقة باب الكعبة[١٠١].

الباب الرابع الذي ركب على الكعبة المشرفة:

تذكر الروايات التاريخية أنه في زمن قريش جاء سيل عظيم فصدع جدران الكعبة، وأخذ بعض السراق كنزها، حيث كان يوضع في بئر جوف الكعبة[١٠٢]، ولم تكن الكعبة وقتذاك مسقوفة، كما كانت قليلة الارتفاع، علاوة على ما حصل لها من الحريق الذي حدث على أثر تجميرها – أي تبخيرها[١٠٣] – على يد امرأة قرشية جمرتها[١٠٤]، فطارت من مجمرتها شرارة، فاحترقت كسوة الكعبة[١٠٥].

وفزعت قريش من الحدث، وهابوا هدم البيت الحرام، حتى لا ينزل الله عليهم العذاب، فأخذوا يتشاورون في الأمر، فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها قام أحدهم فقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس"[١٠٦].

وقد ذكر أصحاب الحديث والسير، والتاريخ، عدة روايات في بناء قريش للكعبة المشرفة، بعضها مطول، وبعضها مختصر[١٠٧]، ومن ذلك أن قريشاً جزأت الكعبة، فكان شق الباب لبني زهرة وبني عبد مناف[١٠٨]، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم ابني عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى بن قصي ولبني عدي بن كعب بن لؤي وهو الحطيم[١٠٩].

---

[١٠١] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٤٥.

[١٠٢] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٥٩.

[١٠٣] أحمد صابون ورشاد بغدادي: السدانة، ص ٢١.

[١٠٤] عبد الله الطريقي: الكعبة المشرفة، ص ٥٣.

[١٠٥] محمود الدوسري: الكعبة المشرفة، ص ٣٣.

[١٠٦] الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير: البداية والنهاية، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص ٣٠١.

[١٠٧] حسين با سلامة: الكعبة المعظمة، ص ٨٧.

[١٠٨] محمد الكردي: التاريخ القويم ٣/ ١٣٩.

[١٠٩] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٦١.

ولما جمع القوم ما أخرجوه من النفقة الطيبة قلت أن تبلغ لهم عمارة البيت كله، فتشاوروا في ذلك، أجمع رأيهم على أن يقصروا عن القواعد، ويحجروا ما يقدرون عليه من بناء البيت، ويتركوا بقيته في الحجر[١١٠].

وهناك روايات عديدة ثابتة عن مشاركة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قريشاً في بناءها للكعبة المشرفة، وكان وقتها في الخامسة والثلاثين من عمره[١١١]، أي أن ذلك الأمر قد حدث قبل البعثة النبوية بخمس سنين، على القول الراجح، وأنه صلى الله عليه وسلم كان يساعد القوم في نقل الحجارة[١١٢].

وتؤكد المصادر أنه حدث وقتها أن أقبلت سفينة على مقربة من ساحل جدة، وكانت تابعة لإمبراطور الرومان، أرسلها من أرض مصر، مع شخص يدعى "باقوم"[١١٣]، تحمل الرخام والخشب والحديد إلى الكنيسة التي احترقت بالحبشة، فعندما وصلت أمام الشعيبة[١١٤] بعث الله ريحاً فحطمتها، وعلمت قريش بالأمر، فذهبوا إلى هناك، واشتروا ما بها من أخشاب وأدوات، وكان باقوم هذا نجاراً وكذلك بناءً، فطلبوا منه أن يحضر معهم ليعاونهم في بناء البيت الحرام، فلما قدموا بالخشب مكة قالوا: لو بنينا بيت ربنا، فأجمعوا لذلك، وتعاونوا عليه، وترافدوا في النفقة[١١٥].

---

[١١٠] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٦٣.

[١١١] الفاسي: شفاء الغرام ١/ ٩٥؛ ؛ أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري: السيرة النبوية، حققها: مصطفى السقا ورفاقه، تراث الإسلام ١/ ١٩٨؛ حسين با سلامة: الكعبة المعظمة، ص ٩٠؛ محمد بن صامل السلمي وآخرون: صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص ٨٨؛ محمد الكردي: التاريخ القويم ٣/ ١٣٩.

[١١٢] فوزية حسين مطر: تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف، جدة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٦١؛ محمد السلمي وآخرون: سيرة خير البشر، ص ٨٨.

[١١٣] ذكر الكثيرون أنه تاجر رومي الأصل، جاء مع السفينة المذكورة التي تحطمت. انظر: يوسف أحمد: المحمل والحج، ص ١٠٠؛ فوزية حسين مطر: عمارة الحرم المكي، ص ٥٤، هامش رقم ٣؛ محمد الكردي: مقام إبراهيم عليه السلام، ص ٩٦، هامش رقم ٣؛ وذكر با سلامة نقلاً عن رواية لابن عباس أنه نجار رومي، ولم يذكر اسمه. انظر: تاريخ الكعبة المعظمة، ص ٨٩. ووقع عند الطبراني عن أبي الطفيل أن اسم النجار (باقوم)، وللفاكهي من طريق ابن جريج مثله. انظر: الفاكهي: أخبار مكة ٥/ ٢٢٧. وإن كان هناك من يرى أنه مهندس قبطي، أي مصري، استعين به في بناء الكعبة المشرفة. انظر: انظر: عبد المنعم ماجد: أقفال ومفاتيح الكعبة، ص ١٠٦.

[١١٤] كانت مرفأ السفن على بحر الحجاز (البحر الأحمر)، لمكة قبل جدة. انظر: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي الرومي البغداددي: معجم البلدان، دار صادر وبيروت، بيروت ١٤-٤هـ/ ١٩٨٤م، ٣/ ٣٥١، وتقع الشعيبة على مبعدة حوالي ٥٠ كم تقريباً جنوبي جدة، وهي ساحل مكة في العصر القديم، ولها دور بارز في تاريخ الجزيرة العربية القديم، وقد كشفت الحكومة السعودية عن موقعها، وأصبحت اليوم متنزهاً للعامة.

[١١٥] محمد الكردي: التاريخ القويم ٣/ ١٣٤.

وطبقاً لما جاء في المصادر، فقد كان أول من بدأ بنقض جدران الكعبة المشرفة هو الوليد بن المغيرة المخزومي[١١٦]، ثم تبعه الناس في فعله، وكانوا في فعلهم يهابون ذلك الأمر ويرهبونه، ثم أخذ الوليد في بناء الكعبة المشرفة، وتوسعة المسجد الحرام، وأنهم وقتذاك قد رفعوا بناء الكعبة بمقدار ثمانية عشر ذراعاً، ولكن قصرت بهم النفقة قبل أن ينتهوا من العمل، مما اضطرهم إلى أن ينقصوا من مساحتها التي على قواعد إبراهيم عليه السلام، وأنهم أخرجوا من الجهة الشمالية للكعبة ستة أذرع وشيئاً[١١٧]، وحجروا عليه ووسعوا في الحجر، وكذلك جعلوا لها باباً واحداً، ورفعوه حتى لا يدخلها إلا من أرادوا[١١٨].

وتشير الروايات التاريخية إلى أن قريشاً جعلت للكعبة باباً بمصراع واحد[١١٩]، يغلق ويفتح[١٢٠]، وأن الباب كان مرتفعاً عن الأرض[١٢١] بمقدار يبلغ أربعة أذرع وشبراً، بعدما كان بابها قبل ذلك بالأرض[١٢٢]، وأنهم وضعوه، ثم أكملوا الارتفاع من بعد حلق الباب بمدماك خشب ومدماك حجر حتى السقف؛ حتى صار ارتفاع جدار الكعبة الخارجي، من الأرض إلى السقف، ثمانية عشر ذراعاً وسقفوها لأول مرة[١٢٣].

وذكر الأزرقي وابن فهد في وصف الباب أنه كان يفتح ويغلق[١٢٤]، ويضيف الكردي بأن معنى ذلك أنهم جعلوا له ضبة خشبية، وهو قفل زمانهم[١٢٥]، ويبدو أن

---

[١١٦] من قادة قريش في العصر الجاهلي ومن أغنياءها، أدرك بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يسلم، بل واستنكر عدم نزول الدعوة عليه، فأنزل الله فيه: "وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم" (الزخرف: الآية ٣١)، ولذلك فقد ناصب الرسول صلى الله عليه وسلم العداء الشديد، وقاوم دعوته أشد مقاومة، ومن أولاده خالد وهشام والوليد وعمارة. عن: (الموسوعة العربية).

[١١٧] صحيح مسلم، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها ح ١٣٣٣/ ٤٠١ و ١٣٣٣/ ٤٠٣؛ إبراهيم العلي: صحيح السيرة، الطبعة الثالثة، عمان ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص ٤٥.

[١١٨] محمد السلمي وآخرون: سيرة خير البشر، ص ٨٨.

[١١٩] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ٢٠٩؛ محمد طاهر بن عبد القادر الكردي: مقام إبراهيم عليه السلام، دراسة وتكملة: عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، إصدارات مركز تاريخ مكة المكرمة رقم ٧، مكة المكرمة ١٤٣٣هـ، ص ٩٦.

[١٢٠] محمد الكردي: التاريخ القويم ٣/ ١٣٥.

[١٢١] محمد الكردي: التاريخ القويم ٥/ ٥١.

[١٢٢] محمد علي بن علان الصديقي المكي: عمارة الكعبة المشرفة في عهد السلطان مراد الرابع، الموسوم إنباء المؤيد الجليل مراد ببناء بيت الوهاب الجواد، دراسة وتحقيق: الدكتور خالد عزام حمد الخالدي، الجمعية التاريخية السعودية، الرياض، الإصدار الخامس ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧، ص ١٣٣.

[١٢٣] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٦٤؛ عباس طاشكندي: باب الكعبة المعظمة، ص ٣٩٠.

[١٢٤] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٦٦؛ ابن فهد النجم: إتحاف الورى، ١/ ١٥٨، ١٥٩.

[١٢٥] محمد الكردي: التاريخ القويم ٥/ ٥٣.

موضع هذا الباب هو نفسه موضع الباب الحالي للكعبة المشرفة، والذي يعرف بالباب الشرقي، أي من جهة الشرق[١٢٦].

وبينما أفاد ابن فهد أن الباب كان بمصراع واحد، فإنه قد ذكر في موضع آخر: "أن الباب الذي كان على الكعبة قبل بناء ابن الزبير بمصراعين، طوله أحد عشر ذراعاً من الأرض إلى منتهى أعلاه"[١٢٧]، وهو ما يخالف الروايات التاريخية، التي اتفقت على كونه وقتذاك باباً بمصراع واحد.

وفي حديث السيدة عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن باب الكعبة فقالت: "فما شأن بابها مرتفعاً، فقال: فعل ذلك قومك، ليدخلوا من شاؤا، ويمنعوا من شاؤا"[١٢٨].

ويضيف الأزرقي عن سبب ارتفاع الباب عن الأرض: "كان باب الكعبة على عهد إبراهيم (عليه السلام) وجرهم بالأرض، حتى بنتها قريش، قال أبو حذيفة بن المغيرة: يا معشر قريش، ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخل عليكم إلا بسلم، فإنه لا يدخل عليكم إلا ما أردتم، فإن جاء أحد ممن تكرهون رميتم به فيسقط، فكان نكالاً لمن رآه، ففعلت قريش ذلك، وردموا الردم الأعلى، وصرفوا السيل عن الكعبة"[١٢٩].

وهكذا، فقد حصرنا للكعبة المشرفة أبواباً ثلاثة من فترة ما قبل الإسلام، ركبت عليها بالفعل، وأثبتت المصادر الموثوقة وجودها واستخدامها، وكذا تعيين سدنة يقومون على شئونها وكل ما يتعلق بها.

وأخيراً، فقد اتفقت المصادر العربية على أن الكعبة المشرفة لم تبق بدون باب بعد ذلك العهد، وإنما كان يجدد لها الباب من وقت إلى آخر، حيث ظل الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء يتحينون الفرص، لاستغلالها في إجراء ترميم لازم للكعبة المشرفة، أو وضع كسوة فاخرة عليها، ومن مظاهر اهتمامهم عمل أو ترميم أو تصفيح باب الكعبة المشرفة وصنع قفله ومفتاحه.

---

[١٢٦] عباس طاشكندي: باب الكعبة المعظمة ٤/ ٣٨٧.

[١٢٧] ابن فهد النجم: إتحاف الورى ٢/ ٧٥؛ يحي الوزنة: الكعبة المعظمة، ص ١٤٦.

[١٢٨] صحيح مسلم، كتاب الحج، باب جدار الكعبة وبابها: ٢/ ٩٧٣ (١٣٣٣).

[١٢٩] الأزرقي: أخبار مكة ١/ ١٧١، عباس طاشكندي: باب الكعبة المعظمة، ص ٣٩٠.